

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

يجد القارئ الكريم على الصفحات التالية طرفاً من قصة حياة ، امتدت أيامها عبر ثلاثة أرباع القرن العشرين ، بما توالى خلالها من وقائع وأحداث . . .

فنحن ننتمى إلى هذا القرن العشرين ، فى مطلعته فتحنا أعيننا ، وعلى مر أيامه عشنا لبابة العمر ، حتى بلغنا خريفه وقد صارت إرهابات القرن الحادى والعشرين تدق علينا الأبواب .

وارتبط صبانا بمفاهيم الحركة الوطنية ، وبآمال الوحدة العربية التى عشنا سنينها الثلاث العذبة فى كهولتنا فلم يتحقق إلا النذر اليسير مما كنّا نحلم به ، ثم أحزنت شيخوختنا تلك الفواجع التى نزلت بأمة الإسلام من أفغانستان شرقاً إلى الجزائر غرباً ، ومن البوسنة شمالاً إلى الصومال جنوباً .

ومثلما رأينا الاستعمار وهو يبلغ ذروة بطشه ببلادنا مع مطلع القرن العشرين ، شاهدنا انحساره أمام حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فى منتصفه ، وها نحن نرقب فى ختام القرن انطفاء شعلة الحرب الباردة بين الكتلة الرأسمالية والمعسكر الاشتراكى اللذين كانت دعوة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز تقف بينهما ، وهى تتابع تداعيات الصراع الإيديولوجى الساخن بينهما ، وتأسف لتأثيراته الضارة فى مصائر البشر .

ونحن نوقن وقد أصبحنا على حافة نهاية القرن العشرين أن السمة الحقيقية لهذا القرن الذى عشناه طويلاً وعرضاً وعمقاً تتجلى بأوضح صورها فيما تحقق فيه من تقدم هائل فى العلوم وقفزات رائعة فى التقنية ، وانهيار عجيب فى الاخلاق ، وابتعاد ذميم عن القيم الروحية والشرائع السماوية .

وكانت معدلات هذا التقدم وذاك التأخر فائقة السرعة ، مما خلق ثورة فى الانتقالات والاتصالات جعلت الكرة الأرضية تنكمش لتصبح مجرد قرية صغيرة لا يفوت أحد من أهلها ما يحدث فى بيت جاره مهما بعد مكانه .

واخترقت المعلومة كل الحواجز حتى صارت على طرف زرار يأتيك بالأخبار من أركان الدنيا الأربعة فور وقوعها ، وغزا الإنسان الفضاء ، ونزل على سطح القمر ، والتقط صوراً للوجه الآخر للمشتري الذى يبعد عن الأرض ملايين الأميال ، ودارت الأقمار الصناعية فى كبد الفضاء الكونى ترقب وتسجل وتنشر على سكان الأرض ما يسرى فيها وما يعرج إلى السماء ، حتى فاقت الطفرة التقنية خلال القرن العشرين كل ما حققته البشرية طوال القرون السابقة أضعافاً مضاعفة .

وعندما تهاوى صرح الشيوعية الإلحادية وقذف بترهاتها فى سلّة مهملات التاريخ كان العمر يقترب بنا حثيثاً من عتبة الألف الثالثة للميلاد التى نحزم بأنها سوف تلج بأبائنا وأحفادنا باب حلبة أحداث مختلفة عما مر بنا فى عالم القرن العشرين . فلن نجد تلك الأجيال الصاعدة مكاناً لها فى القرن الحادى والعشرين ما لم تدرك أهمية العلم والتطور ، وأن كل مالا يتطور يموت ويندثر .

ولم يعد يكفى ملاحقة ما ينجزه الآخرون من تقدم وتطور على نحو ما فعل جيلنا فتخلف عن ركب الحضارة حتى صار عالة عليها ، بعد أن كنّا بناتها فى أول الزمان .

وإن كانت لجيلنا حسنة تضاف إلى صحيفته يوم الحساب ، فهى التمسك بأهداب الدين الخفيف وآدابه ، إذ فتحنا أعيننا على مصر وكل نساها محجبات ، فصار أغلبهن اليوم سافرات ، وكان صغيرنا يقف لكبيرنا ، ويلقى عالمنا التوقير والاحترام ، فأصبح كل ذلك اليوم من أقاصيص السامر وفض المجالس .

وحج جدى إلى البيت العتيق رفق قافلة المحمل التى بدأت سيرها بالجمال من ذات الحاج شرق القاهرة فى مطلع القرن وكل تعداد مصر وقتها عشرة ملايين ومرّ فى ذاهبه وإيابه بقلعة العجروود عند مدخل مدينة السويس ، ثم قلعة الجندى بقلعة نخل فالتمد فالكونتلا فالعقبة فالمويلح فالوجه فينبع حتى دخل المدينة المنورة . وشاهد فى كل قلعة بئر ومدفع عليه رسم سلطان مصر وشعار أنه صبّ فى مصر المحروسة ، فاستغرق ذهابه وإيابه خمسة شهور تكلف فيها أربعة عشر جنياً ؛ ثم حج أبى فى ثلثة الأول بالسفينة التى أقلعت

به من السويس فاستغرقت حجته خمسة أسابيع ، تكلف فيها مائة وأربعين جنيها ، وحججنا نحن فى ثلثه الأخير وقد صار تعداد مصر ستين مليوناً فاقلعت بنا الطائرة النفاثة من مطار القاهرة الدولى واستغرقت حجتنا خمسة أيام تكلفنا فيها ألفاً وأربعمائة جنيه .

وعبر رحلة العمر التى عشنا حلوها ومرها ، توالى على أمتنا الحبيبة الأفراح والأفراح ، وتطورت التقاليد والعادات ، فعندما دخلنا الكلية الحربية يوم أن اشتعلت الحرب العالمية الثانية وجدنا البيادة هى العنصر السائد فى الجيش (أى المشاة المترجلة) ، كما كانت الطوبجية (المدفعية) لازالت تستخدم البغال ، وقوات الحدود تتركب الجمال (الهجانة) ، ولغة التخاطب واصدار الأوامر يغلب عليها اللفظ التركى ، فلما تقاعدنا كانت المشاة الميكانيكية والدبابات هى ملكة المعركة الخفيفة الحركة والحرب المخاطفة التى توالى جولاتها فى تتابع سريع بمسرح سيناء حيث دارت أعنف المعارك التصادمية بين المدرعات ، وتراشقت المدفعية والصواريخ بأكشف النيران ، وانقضت قوات الصاعقة على مؤخرات العدو بالحوامات (الهليكوبتر) .

وعلى خلاف ما كان يسببه فيضان مياه نهر النيل - أحد أنهار الجنة ، من مشاكل مزمنة استدعت مساعدة الجيش ، سوف تصبح مشكلة ندرة المياه والجفاف أهم تحديات الأجيال الصاعدة فى القرن المقبل . وكما عاش جيلنا عصر الفحم والنفط ، فسوف يعيش من بعدنا عصر الذرة وتوليد الطاقة من الشمس والرياح والأمواج .

ولقد ولدنا وأمهاتنا يقرن فى بيوتهن ، ونرى النساء اليوم وقد خرجن للكدر فى كل ميادين العمل ، حتى أصبح منهن الضابط والجندى .

وصك سمعنا فى عام ١٩٣٤ صوت أول إذاعة من راديو القاهرة ، وشاهدنا أول إرسال للتلفاز على ١٩٦١ ، ثم انغمسنا للأذقان فى ثورة الميديا (الإذاعة والصحافة والتلفاز) وما يبعثه الدش من برامج ذات تأثير بالغ على أخلاق الشعوب وآدابها وأعرافها فيما يطلق عليه اسم « الغزو الفكرى » .

واندمجت رؤوس الأموال فى المشروعات متعددة الجنسية والمؤسسات والشركات القابضة العملاقة ، كما انتشرت الأسواق المشتركة فى الأقاليم والقارات ، وانطلقت اهتمامات العالم من الخيز الوطنى المحدود إلى الساحة الكونية الفسيحة بما يرجح أن يرى القرن المقبل الحكومة العالمية بأى من صورها المطلقة أو المبسرة .

وتذكرنا أيام الطفولة والصبا بشدة الروابط العائلية وحقوق الجار التى انفكت عقدتها اليوم ، وبرباط الدين الذى كان يحكم جميع التصرفات والمعاملات والعلاقات ، وبمشاعر الوطنية الجارفة وحب مصر التى كنا نتغنى بأمجادها صباحاً ومساءً ، ونفخر بدورها فى ركب الحضارة منذ فجر التاريخ ، وأنها صانعة التاريخ .

وكم كانت حياتنا العسكرية حافلة بقدر ما تحملها الكلمة من معانٍ ، فقد بدأت بالحرب العالمية الثانية ، ثم بفظائع الاحتلال البريطانى بمنطقة القناة ، فحريق القاهرة ، بالإضرابات والمظاهرات ، فحرب فلسطين ، فالثورة ، فالعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، فالوحدة مع سوريا ، فالانفصال ، فثورة اليمن ، فقارعة صيف ١٩٦٧ ، فنصر رمضان المجيد الذى كان مسك الختام ،

ومما أعجب له أننى وقد زاملت اللواء أركان الحرب عبد المنعم محمد خليل قرابة نصف القرن فى السلاح . . فإن طريقنا لم يلتق إلا فى نهايته ، عندما جمعتنا لجنة تسجيل التاريخ العسكرى لحرب رمضان المجيد ؛ فتوثقت بيننا أواصر الصداقة والمحبة الخالصة لوجه الله . وكم كان أملنا أن تحدث مبكراً عن ذلك حتى تعيننا على تجاوز ما صادفناه من مشاق وأتراح ، وتضاعف ما حظينا به من نجاح وأفراح فى قلب المعركة التى خضناها معاً على امتداد نصف قرن امتلأ بأخطر ما مرَّ بمصرنا العزيزة من أحداثٍ جسام على نحو ما يجده القارئ الكريم فى هذا الكتاب الشيق ، الذى أتحفنا به هذا الضابط العظيم والقائد الهمام ، اللواء أركان الحرب عبد المنعم محمد خليل ، وضمته جانباً من حياته الحافلة ، وخبرته الواسعة ، وإيمانه الصادق ،

اللواء أركان الحرب

حسن احمد البدرى